

مؤتمر السقيفة

و

الديمقراطية الغربية الحديثة دراسة تحليلية مقارنة

للأستاذ الدكتور

مغاوري عبيد منصور

رئيس قسم التاريخ بكلية الدراسات الإنسانية بنات

تفنها الأشرف — جامعة الأزهر

الطبعة الثالثة

١٤٢٥هـ — ٢٠٠٥م

منتدى سور الأزهرية

WWW.BOOKS4ALL.NET

منتہی سورا الازہکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

مؤتمر السقيفة

و

الديمقراطية الغربية الحديثة دراسة تحليلية مقارنة

بحث مستقل

من حولة كلية اللغة العربية بالزقازيق

للأستاذ الدكتور

مغاوري عبيد منصور

رئيس قسم التاريخ بكلية الدراسات الإنسانية بنات

تفهنا الأشراف — جامعة الأزهر

(الطبعة الثالثة)

١٤٢٥ هـ — ٢٠٠٥ م

مؤتمر السقيفة والديمقراطية الحديثة

مقدمات المؤتمر :

إن من ينظر إلى حال الأمة الإسلامية يوم وفاة النبي ﷺ لابد وأن يقع على حقيقة مهمة ، هي : كيف ينتظم أمر الأمة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وكيف تُسَّاس الأمور فيها؟

وقد كان النبي ﷺ مُبلغ رسالة ، وصاحب دعوة ، ونبي أمة نقل لأمته كل ما تلقاه من ربه عزوجل ، وفصله لهم ليعملوا به ، وشرح لهم بفعله ما استشكل عليهم وغمض ، حتى صار كل عمل يأتيه أو قول يُسمع منه منهاجا واضحا ، وسراجا منيرا .

وفى هذا الصدد لا نجد أحدا من البشر دُونت كل حركات حياته كاملة إلا المعصوم ﷺ الذي سجلت له كل حركة وسكنة ، ولفظة وسكنة ، وإشارة وإيماءة ، ورقدة ويقظة ، لأن ذلك كله يمثل المنهج الواضح الذي يجب على الأمة أن تتخذه مسلكا وغاية لإنجاح مهمتها في خلافتها لله في الأرض .

وتحقيقا للهدف الأسمى من الرسالة فإن النبي ﷺ لم يدخر جهدا في سبيل تعليم الأمة كيف تكون حياة المؤمن مستتيرة وضّاءة ، فأوقفهم على كل ما أنزل إليه من ربه ، وُصولا بالأمة إلى قمة العلم والمعرفة والارتقاء .

وإذا كان النبي ﷺ قد أتم تبليغ الشريعة للناس وأقرأها بينهم ، ورسم لهم بسياسته الحكيمة كيف يكون الحاكم المسلم في قومه ، فإنه لم يُبق

لمن يخلفه إلا القيام بحراسة الشريعة وحمايتها ، وتدبير أمر الأمة من خلال الاحتكام إلى كتاب الله وسنة نبيه الأمين وهما ركيزتا المنهاج الذى قال عنه ﷺ : " تركت فيكم ما إن ما تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله وسننى " .

وهنا يبرز التساؤل الآتى : كيف يجتمع المسلمون على خليفة جديد لرسول الله ﷺ ؟ وما الكيفية التى ستتم بها طريقة توليته ؟ وبخاصة وأنها أول سابقة للمسلمين فى هذا الشأن ، ولم يُعَيِّن النبى ﷺ من يخلفه ، كما لم يحدد الإسلام نظاما مفصّلا للحكم ، وإنما وضع القواعد العامة التى يقوم عليها نظام الدولة ، ورسم للحاكمين بطريق التحديد مبادئ الحكم الصالح الذى يقود الجماعة إلى الخير والسعادة .

وكان من بين هذه المبادئ الأساسية أن جعل الشورى أصلا للحكم، ثم ترك للأمة اختيار المظهر الذى يتطور بتطور الزمان والمكان، لتختار هى بنفسها حسبما ترى من مصالحها (١) .

ولقد دُعر المسلمون لما سمعوا بوفاة النبى ﷺ ودارت بهم الأرض لفقد نبيهم وحببيهم الذى نقلهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الحق واليقين ، حتى إن أجراهم وأشدّهم صلابة وهو عمر بن الخطاب، لم يتحمل فجيرة الخبر ، وتوعد من يقول به ، إلى أن جاء أبو بكر الصديق — لما علم الخبر — فلم يلتفت إلى شئ حتى دخل على رسول الله وهو مسجى ببردته فى ناحية من البيت ، فكشف عن وجهه ثم قبله

(١) أستاذنا الدكتور / عبد الفتاح على شحاته : تاريخ الأمة العربية ص ١٦ .

وقال : " بأبى أنت وأمى ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبدا " ، ورد الثوب على وجهه^(١) وخرج وعمر ابن الخطاب يكلم الناس بشدة وتوعد ، فقال : " على رسلك يا عمر فأنصت " ، ولم يذعن عمر لما قاله ، وأبى إلا أن يتكلم ، فلما رأى أبو بكر ذلك منه أقبل على الناس وحدثهم ، فأقبلوا عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : " أيها الناس . إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا الآية : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ ^(٢) إلى آخر الآية ، وكان الناس لم يسمعوا بها من قبل ، وها هو عمر بن الخطاب يقول بعد ما سمعها : " والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت - أى دهشت - حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله قد مات " ^(٣) .

تلك هى الظروف النفسية التى عاشها المسلمون حين وفاة النبى ﷺ ، وهى ظروف تضيف إلى عبء اختيار الخليفة القادم أعباء آخر جسم ، إذ أن من يضطلعون بالرأى وتفنييد الحجة لابد وأن يكونوا فى حالة نفسية هادئة ، حتى تأتى أحكامهم غير تائرة أو متوترة ، كما

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٠٠ " بتصرف يسير " .

(٢) من الآية ١٤٤ من سورة آل عمران .

(٣) تاريخ الطبرى : ج ٣ ص ٢١٠ ، ابن الوردى : تمة المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ٢٨٥ ، الشيخ محمد الخضرى : نور اليقين فى سيرة المرسلين ص ١٩٣ .

يجب أن يكونوا قد طرحوا الموضوع للمناقشة فيما بينهم ، ومحصوه بعقولهم وترادوا فيه الكلام .

غير أنه بينما يلتف المهاجرون حول بيت النبي ﷺ في هذه الحال التي لم يشغلهم سواها ، إذ يأتى إلى عمر بن الخطاب من يخبره باجتماع الأنصار في سقيفة بنى ساعدة لاختيار خليفة لرسول الله ﷺ يقوم بأمر الأمة . ويحمل عمر ﷺ الخبر إلى الصديق القائم بجوار حبيبه الذى لحق بربه ، فيرد الصديق عليه : إني مشغول ، أى مشغول بأمر تجهيز جثمان النبي ﷺ ، فيؤكد له عمر أن قد حدث أمر لابد لك من حضوره ، فخرج إليه ، فقال عمر : أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بنى ساعدة ، يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عباد ؟

الأنصار في السقيفة :

إذن لنقف هنا لحظة مع وجهة نظر المجتمعين في السقيفة قبل أن يلحق بهم المهاجرون ، فلقد رأى الأنصار شغور منصب رئيس الدولة والأمر يتطلب ضرورة التغلب على أحداث الموقف واختيار من يقوم بأمر المسلمين في ظروف شديدة الخطورة والحساسية ؛ فالعرب ما يزال أكثرهم على الشرك ، يتربصون بالمسلمين الدوائر ، كما لا تزال أمام المسلمين الكثير من أعباء صيانة الدين وإقراره بين الناس .

كل هذا كان في مخيلة الأنصار ، ولذلك اجتمعوا لتقرير هذا الأمر الخطير ، أما لماذا قرروا أن يكون الخليفة منهم ؟ فما ذاك إلا لأنهم

رأوا أنفسهم أهل المدينة ، وأصحاب المصالح الكبرى فيها والمهاجرون مشغولون بتجهيز جثمان النبي ﷺ ، كما رأوا أنهم أهل العدد وأصحاب السيوف التي تركّز الإسلام بها ، وحماة الدعوة الإسلامية ، حينما كانت قريش تضطهد الدعوة وتعذب معتققيها ، ثم هم — كذلك — أنصار الرسول وحواريوه ، وهذه المقومات تجعلهم أحق بالإمارة من قريش التي لفظت الإسلام وطرده وأهله (١) .

كذلك خشي الأنصار استئثار المهاجرين من القرشيين بالخلافة فتكون سنة في قريش أبد الأبد ، وإن يذهب الصالحون من أصحاب النبي ﷺ فإن من يأتي من بعدهم قد لا يعرف للأنصار فضلهم وسابقتهم في الدين ونصرتهم لرسوله ، فيجورون عليهم ، أو يغمطوهم حقهم ، فكان سبق الأنصار إلى السقيفة تحوطاً لهذا الأمر ، وتفادياً لحدوثه ، وهو أمر يحمل في طواياه حرصاً على الدين ، وحباً في صيانتهم من رءوس قريش الذين ما يزالون حديثي عهد بالإسلام ، وقد تعاودهم عصبيتهم الأولى فتضيع الأمور في غوغائها .

وكان الدليل على هذا الحرص من الأنصار أنهم احتملوا مطالبة المهاجرين إياهم بالإمارة ، فقرروا لذلك جعلها — حينئذ — مناصفة بينهم ، ودليل آخر هو سرعة اقتناعهم بما حدثهم به أبو بكر من بعد ، ومبادرتهم إلى مبايعته ، وكل هذا يظهر أن فكرتهم ما كانت إلا من

(١) الدكتور : عبدالفتاح على شحاته : تاريخ الأمة العربية ص ١٦ ، ونفس

المعنى للدكتور : عبدالمقصود نصار في كتابه الخلفاء الراشدون ص ١٢ .

أجل الحفاظ على الدين ، وحماية الدولة ، فلما وجدوا من يقوم بالمهمة التي أرادوها تركوا الأمر له ، كما سيتضح فيما بعد .

يضاف إلى كل ما سبق أن الأنصار وهم أهل المدينة وأصحابها قد ظنوا أن المهاجرين بعد لحوق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى سيعودون إلى أرضهم وديارهم بمكة ، حيث ما يزالون حديثي عهد بسكنى المدينة فلم تمض فترة كافية تجعلهم يقررون التمسك بالمقام في المدينة وإنما هي مدة إحدى عشرة سنة التي قضوها بصحبة رسول الله ﷺ فقط، وبهذا يكون عبء رئاسة الدولة من شأن الأنصار وحدهم .

وبكل هذا تبرأ ساحة الأنصار من أن يكونوا قد دبروا للأمر وعزموا على الظفر به من دون المهاجرين ، وذلك جلى بين من خلال الخطبة التي ألقاها على الأنصار في السقيفة زعيمهم سعد بن عبادة الخزرجي والذي كان قد تقرر اختياره رئيسا للدولة ، إذ قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : " يا معشر الأنصار . إن لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن محمدا ﷺ لبث بضع عشرة سنة في قومه ، يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأوثان فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ، والله ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسوله ، و أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم فيما عموا به حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة ، ساق إليكم الكرامة ، وخصكم بالنعمة ورزقكم الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه من غيركم ،

حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا ، وحتى أثنى الله لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسياقكم له العرب ، وتوفاه الله إليه وهو عنكم راض ، وبكم قرير العين استبدوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم من دون الناس" (١) .

وقد لقي هذا الكلام من سعد في نفوس الأنصار قبولا ، فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت في الرأي ، وأصبت في القول ، ولن نعدو ما رأيت ، نوليك هذا الأمر ، فإنك فينا رفيع ، ولصالح المؤمنين رضا (٢) .

وواضح هنا أن الأنصار لم يُعدوا لهذا الأمر من قبل ، بدليل أنهم اختاروا سعد بن عباد وهو مريض مزمل بعباءته لا يستطيع أن يُسمع مخاطبه ، إذ كان ينقل كلامه عنه إلى الناس قريب له كي يُسمعهم ولو كانوا قد أعدوا للأمر من قبل لاختاروا رجلا قويا صحيحا يستطيع تحمل المهمة الثقيلة ، ومقاومة من يختصم عليه ، ومن ثم فما كان اختيارهم هذا إلا تهيئا من سعد بن عباد لكبر سنه ومنزلته وحسب .

وقد جال بخاطر بعض الأنصار ما قد يثار في هذه المسألة من جانب المهاجرين ، وترادوا الكلام فيما بينهم ، وقالوا : فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تتازعوننا هذا الأمر بعد ؟ فكان في هذا

(١) تاريخ الطبرى : ج ٣ ص ٢١٨ . الإمامة والسياسة ص ٥ نهاية الأرب ج ١٩ ص ٣٠ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٨ ، نهاية الأرب ج ١٩ ص ٣٠ .

تَخِيلُ لرأى المعارضة التى قد تَجَدُّ من جانب المهاجرين ، ودراسة للحجج التى قد تقوم فى وجههم ، فماذا هم قائلون ؟

ورأى بعض الأنصار أنه إذا طلب المهاجرون الإمارة ، فإنها تكون مناصفة بينهم ، ويُختار أمير من كل فريق^(١) ، إرضاء لكافة الأطراف ، فلما سمع بذلك سعد بن عبادة قال : هذا أول الوهن (أى الضعف) ، وربما دعاه إلى هذا القول أن الأمر — أى أمر — يفسد بتعدد الأمراء ، على أن ذلك التخييل من الأنصار وإتاحتهم الفرصة للمهاجرين بإقامة أمير منهم يدل دلالة قاطعة على اعترافهم بحق المهاجرين فى هذا الأمر .

وفد المهاجرين فى المؤتمر :

نعود إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، إذ أسرعوا إلى السقيفة لتدارك الموقف ، واستئصال جذور الفتنة التى قد تنشب ، فيلتقى بهما فى الطريق قَدْرًا أبو عبيدة بن الجراح ، وينطلق الثلاثة إلى السقيفة ليتقابلوا فى طريقهم برجلين من الأنصار هما: عويم بن ساعدة ومعن ابن عدى : فيشيران عليهم أن يرجعوا فاقضوا أمركم بينكم فإنه لم يكن إلا ما تحبون ، ولعل هذه الإشارة من الأنصاريتين لعلمهما أن أمر السقيفة هين ، وليس بأهم من أمر تجييز النبى ﷺ ودفنه .

وهنا قد يفهم البعض — بعقلية اليوم — أن الأنصاريتين ما كانا يقصدان إلا التعمية والتمويه على المهاجرين ، لكن ذلك مردود ولا

(١) القاضى ابى بكر بن العربى : العواصم من القواصم ، ص ٤٠ " بتصرف "

صحة له ، إذ الأحداث كلها وليدة اللحظة ، لم يتم لها إعداد ، بدليل أنه لو كان الأمر كذلك ما اجتمع الأنصار في السقيفة المعروفة والمعهودة للجميع ، ولاختاروا مكانا خفيا يعقدون فيه مؤتمرهم ، وكل ذلك مما لم يحدث ولم يخطر ببال !

وعلى كل فإن أبا بكر وصاحبيه لم يلتفتوا إلى ما قاله الأنصارى ، وقصدوا إلى المجتمعين في السقيفة ، فدخلوا قبل أن يتموا أمرهم أو ينقص جمعهم ، وهم عمر بن الخطاب أن يتحدث بكلام كان قد هياه في نفسه ، لكن أبا بكر كان يعلم شدته ، فقال : على رسلك يا عمر ، ثم انطق بعد بما تحب وكأن أبا بكر قد أدرك ببديهيته أن الموقف لا يحتمل التشاحن أو المشادة في الرأي : بل يتطلب الهدوء وضبط النفس ، فقام في الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "إن الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه وشهيدا على أمته ، ليعبدوا الله ويوحده : وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، إنما هي من حجر منحوت ، وخشب منجور ... فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه ، والإيمان به ، والمواساة له ، والصبر على شدة أذى قومهم لهم ، وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس لهم مخالف ، زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلّة عددهم ، وشنف الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم " (١) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٠ ، نهاية الأرب ج ١٩ ، ص ٣٣ .

فكان هذا البيان كافياً لإظهار حق المهاجرين في الإمارة ، إظهاراً لا يحمل في طواياه تعالٍ ولا أنفة ، وإنما يخرج من قلب مؤمن . لينير الطريق ويهدي الحائر ، ويجمع الشمل على كلمة سواء ، في جو ملتهب بالحماس الذي قد يشتعل ناراً ويُنبش فتنة .

ثم إن المتحدث هنا لا يُؤثر قومه بالذكر والتزكية ، وينسى الطرف الآخر وإنما يقرر لهم ما يُعلى من شأنهم ، ويحفظ لهم قدرهم أسوة بإخوانهم من المهاجرين ، فل كلاهما حقه وقدره ومنزلته ، ولذلك يوجه أبو بكر حديثه إلى الأنصار قائلاً : " وأنتم يا معشر الأنصار . من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تُفتاتون بمشورة ، ولا تُقضى دونكم الأمور " (١) .

ويبدو أن هذا الكلام من أبي بكر قد ألقى بظلال من الطمأنينة والارتياح في قلوب الأنصار ، وبخاصة وأنه حديث لم يظهر فيه تعصب من قائله على غرار ما ظهر من عصبية سعد بن عبادة في حديثه من قبل . مما دعا أبا بكر إلى أن يستطرد قائلاً : " أيها الناس . نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة في العرب : وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ ، أسلمنا قبلكم ، وقُدِّمنا في القرآن عليكم ، فقال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٢٠ ، العواصم من القواصم ص ٤٣ .

الْأُولَئِكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴿١﴾ ، فنحن المهاجرون ، وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفيء وأنصارنا على العدو ، أويتم وآسيتهم فجزاكم الله خيرا ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله" (٢) .

ولا يصح أن نفهم من هذه المقولة الأخيرة لأبى بكر أنه يزكى المهاجرين من دون الأنصار ، أو يأتى بمبررات من عنده لتعزيز موقفه ، على غرار ما يفعله البعض فى مجتمعاتنا الحديثة ، حينما يتعصب كل فريق لما يراه ، ويخلق من الأسباب والمبررات ما يزكى رأيه ، إنما كان ما قاله أبو بكر يخرج من ثنايا كتاب الله وسنة نبيه ومن خلال ثبوت الأيام للأحداث (٣) .

وإلى هنا والكلام يبدو متسقا ومنسجما مع تخيلات الموقف وجوّه العام ، لكن بعض الروايات التاريخية تبدأ بعد ذلك فى تصوير الموقف بصورة أخطر وأبعد مما يحتمله ، فيورد الطبرى ومن نقل عنه ما يشير إلى أن معركة كلامية حامية اشتدت بين عمر بن الخطاب (من المهاجرين) ، والحباب بن المنذر بن الجموح (من الأنصار) ، حيث تراشقا بسهام الكلمات اللفظة ، وتطاولا كلاهما على الآخر إلى الدرجة

(١) من الآية ١٠٠ من سورة التوبة .

(٢) الطبرى ٣ / ٢٢١ ، نهاية الأرب ١٩ ، ٣٤ ، العواصم من القواصم ص ٤٤

(٣) ينظر صحيح مسلم ج ١٢ ص ١٩٩ ، وصحيح البخارى ج ٦ ص ٧

النصوص التى تخص قريشا بالإمارة .

التي جعلت الحباب يهدد بإجلاء المهاجرين عن المدينة إن لم يذعنوا لما يراه الأنصار ، وفوق هذا يقرر الحباب أنه سيُعِيدُها نارا مشتعلة تلهب قلوب الفريقين وأبدانهم كما كانت في الجاهلية ثم يتهدد الرجلان كلاهما بالقتل ، حتى يشق سيفُ الحباب أثير كلمات أبي بكر الرقيقة العاقلة التي سادت الجو منذ لحظات !!

هذه الرواية التي سجلها الطبري ، ونقلها عنه بعض من رَوَوْا هذا الحدث ، نقطع بانتفائها ، فالواقع لا يتيح لها فرصة الظهور ، إذ كيف يكون هذا الموقف المتشنج والملتهب بين صحابيَّين جليلين لكلاهما سبقه ونصرته في الإسلام ؟! أليس هذا عمر بن الخطاب الذي أعز الله به الدين ، ونزل على لسانه القرآن الكريم ، وبشره النبي ﷺ بالجنة؟

وكذلك الحباب بن المنذر الذي أبلى في سبيل الله خير البلاء واجتهد رأيه في غزوة بدر لصالح المسلمين ، حتى رأى النبي ﷺ في رأيه صوابا فنزل عليه ؟

فإن قال قائل . إذن من أين جاء الطبري بمفردات هذه الرواية ؟ قلنا : إن تاريخ هذه الجلسة في السقيفة لم يدون في حينها ، وإنما دُون فيما بعد ، وقد تغيرت الظروف ، وجعلت الأحداث المسلمين — فيما بعد — ينقسمون وراء عدة اتجاهات ، وبخاصة بعد أحداث مقتل الخليفة الثالث عثمان ؓ ثم ما تلا ذلك في موقعي الجمل وصفين في عهد الخليفة الرابع ، وما ترتب على كل ذلك من انتقال الإمارة إلى البيت الأموي .

وبعد كل هذا الوقت الطويل سُجل التاريخ بروى جديدة ، وصور متغيرة ، مما يجعل لسان الحال ذا تأثير مهم على التسجيل التاريخي للأحداث السابقة ومن يدري ، فلعل هذه الرواية قد حُكِيت من قِبَل المتعصبين ، بعدما تباعد الزمن بين الحدث وتاريخه ، فجاءت على هذه الصورة المشوهة التى تتنافى والجو العام الذى ساد المؤتمر فى حينه ، وعليه فكيف نتمسك برواية جاوزت زمن الحدث بما يزيد على قرنين من الزمان دون أن نناقشها ونعلل لها ؟

ثم إن الطبرى قد أورد قبلها روايتين وبعدها روايتين لم تحو أى منها هذه اللقطة المشوهة ، فلماذا نقف عند هذه الرواية بالذات ؟ ثم إذا كان الطبرى — وتلك طريقته — ينقل الروايات ولا يقف عندها بتعليل أو مناقشة فلماذا لم يحاول من نقلوا عنه الوقوف عند المشكل ومناقشته والتعليل له ؟

وقد نتج عن هذا أن حلا لبعض المستشرقين أن يتخذوا مما احتوته الرواية من الاختلاف بين عمر والحباب مدعاة للطعن على الصحابة^(١) وإظهارهم بمظهر المتكالبين على حطام الدنيا ومناصبها ، حتى إذا وصلوا إلى تشكيك المسلمين فى صحابة النبى ﷺ ، وأظهروا الرعييل الأول بالمظهر التافه ، سهّل عليهم أن يتناولوا كل واحد منهم على حدة بالطعن والتجريح ، ثم يقولون للمسلمين والعرب بعد ذلك : انظروا إلى أجدادكم وبناء مجدكم، فهكذا كانوا على جانب كبير من الحرص

(١) ينظر فى ذلك تحليل قيم بعنوان (المستشرقون ومؤامرة الخلافة) للأستاذ الدكتور: عبدالفتاح شحاته فى كتابه : تاريخ الأمة العربية ص ٢٨ — ٣٥ .

والطمع ، والتكالب على حطام الدنيا الحقير ، وها هم كبارؤهم
وسادتهم : عمر والحباب وسعد بن عباد يثيرون شغبا ويطعن بعضهم
على بعض فى حمق وطيش فى الوقت الذى لم يُوار فيه جثمان رسول
الله ﷺ بعد (١) .

وإذا استطاع الطاعنون على سلفنا وتاريخنا الإسلامى توصيل هذه
الدسائس إلى عقول الأجيال اللاحقة ، سهل عليهم أن يهونوا من شأن
كل عزيز وغال على نفوس المسلمين ، بل سهل لهم أن تكون طعناتهم
فيما بعد موجهة إلى ذات المنهج الذى أرسى قواعده للأمة نبيها
المعصوم ﷺ ، إذ لو صح المنهج لصحت نتائجه ، ولظهرت آثاره فى
الجيل الذى عايش النبی وجالسه ، وتعلم بين يديه ، ويصبح بإمكان
المشككين أن يتهموا الأمة جميعا بالتخلف وعدم النضوج ، وإثبات أن
الرقى والحضارة من حق وصنع الغرب الملحد وحسب .

ولنقف مع هؤلاء الطاعنين وقفة سريعة نقول لهم : إذا كان هذا
الذى تزعمون ، وإذا صحت روايات التشكيك التى تعتمدون عليها ، ألم
يكن من المنطقى — حسب ادعاءاتكم الديمقراطية الحديثة — أن
يتمخض هذا الصراع على السلطة والذى حُسم لصالح أبى بكر
الصدیق ، عن وجود عصبية مناصرة لسلطان الخليفة ، تشغب عليه
من أول لحظة ، وتظل تعمل على تقويض سلطانه لتفوز بالوثوب إلى
قمة السلطة التى كان الصراع من أجلها ؟

(١) الدكتور : إبراهيم شعوط : سياسة الهدم فى التاريخ الإسلامى .

إذا كان هذا المنطق نتيجة حتمية لما يدعى هؤلاء ، ومن خلال تشدقهم بالحرية والدستورية ، والرأى والرأى الآخر ، فإننا لم نسمع عن شئ من هذه الفتن أو الثارات فى عهد أبى بكر ، بله فى عهد عمر وعثمان .

وحتى لما طلب الأمويون الإمارة من علىّ - فيما بعد - لم يطلبوها من منطق معارضة قديمة ، ولا بحق سابق ضئيع ، وإنما سعوا لأسباب استجدت وراقتهم - فيما بعد - أو يُمكن أن تموت الحرية الدستورية والمعارضة السياسية طيلة تلك الفترة ، بحيث لم يسجل التاريخ لها ولو موقفا ثوريا واحدا ؟

وأیضا لو سلمنا - جدلا - بصحة الرواية التى تقرر هذا الخلاف بين صحابيين جليلين (عمر والحباب) ، وما روى عنهما من الاختلاف والعصبية لكان ذلك بعينه فى صالح الديمقراطية التى يقررها الإسلام ، إذ أنه من خلال الرواية يتبين لنا أن كلاهما قد طرح فكره عن الخلافة وعززه بما يؤيده على مرأى ومسمع من جميع الحضور ، فى إطار فردى لم يتسع لأن ينتج عنه تَكَوُّن أحزاب تعارض بعضها البعض ^(١) ، وما كان ذلك إلا خلافا فرديا امتثل طرفاه فى النهاية لما فيه صالح الأمة العام ، بدليل أن الحباب بن المنذر نفسه لم يرفض بيعة أبى بكر ،

(١) ولعله الآن فقط قد وجد فى النظام الغربى ما يحاكى هذا التناظر بين عمر والحباب ، فنرى هذه الأيام مناظرات شعبية تليفزيونية بين المرشحين لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية ، وهم يعدون ذلك أرقى درجات الحرية والديمقراطية ويتغنون به .

ولم يخرج على إجماع الأمة ، فإذا كان قد قام خلاف بين اثنين من فضلاء الصحابة ، فما كان إلا اختلافا من أجل الإتفاق .

وفوق كل ما سبق بيانه ، فإن الأنصار لم يكونوا قد قطعوا بأن الخلافة من حقهم فقط ، وإنما كان موقفهم الأول ، واختيارهم لسعد ابن عباد مجرد تصور طارئ تهيأت له نفوسهم لحظة سماعهم بوفاة النبي ﷺ والدليل على ذلك يتمثل في أمرين :

الأول : أن إجابة الأنصار لسعد بن عباد لم تكن صادرة عن اعتقاد جازم في أحقيتهم للأمر من دون المهاجرين ، وإلا لباعوا سعدا^(١) ، واستقروا على أن الخليفة منهم، ولم يرضوا عن ذلك بديلا .

والأمر الثاني : أن الأنصار ترادوا الكلام فيما بينهم ، واحتملوا معارضة المهاجرين ، ومطالبتهم لهم بالخلافة ، وقال بعضهم لبعض: "فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا: نحن المهاجرون، وصحابة رسول الله الأولين، ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلام تتازعوننا هذا الأمر بعده؟!"^(٢) .

فإذا كانت مخيلة الأنصار قد لمحت ما يعتمد عليه معارضوهم ، فإنهم أيضا قد اقترحوا الرد عليه ، وهياؤا من الحلول ما يرضى الطرفين، وقالوا : نقول للمهاجرين إذاً : " منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا"^(٣) .

(١) الدكتور : عبدالفتاح شحاتة : تاريخ الأمة العربية ص ١٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ٣ / ٢١٨ ، ٢١٩ ، ونفس المعنى لابن خلدون فى المقدمة ص ١٩٤ ، (فصل فى اختلاف الأمة فى حكم منصب الخلافة وشروطه) .

(٣) المصدران السابقان .

وكان سعد بن عبادة قد رأى عدم الجزم الذى ألمحنا إليه ، وازداد يقينا به ، فرد على مَنْ قال باقتسام الأمرة بين الفريقين بقوله : " هذا أول الوهن " ، أى بداية الضعف والفرقة إذا ما اقتُسمت الإمرة بين الفريقين .

ويجب على الباحث المدقق أن يقف عند تصور الأنصار لأحقية المهاجرين ، أو (المعارضين) إن جاز أن نسميهم بهذا الاسم فى هذه اللحظة بالذات ، إذ لو نقلنا هذا المشهد وقسناه بالمقاييس الديمقراطية العصرية فلن نجد أن الأغلبية المنفردة بالموقف تحسب حسابا للأقلية المعارضة وهى غائبة، وإذا حدث أن حسبت لها حسابا فإنه لن يصل إلى مستوى إشراكها فى الأمر بالتساوى معها . وما ذاك - فى تقديرى - إلا لأن الصحابة أنصارا ومهاجرين ، أغلبية وأقلية ، ما اتخذوا من قرار ، ولا دبروا من أمر إلا وينطلق من منظور إسلامى عام . هدفه الأسمى رسم السياسة العامة للدولة الإسلامية ، وهو منظور سام لم تتداخل فيه الأهواء ولا النزعات الخاصة أو الحزبية ولم يكن وراءه من هدف شخصى أو مطمع دنيوى، كما هو الحال الآن - فيما يسمى بالديمقراطية وحرية الرأى .

اتفاق الكلمة :

نعود إلى الكلمات التى أنقأها الصديق ﷺ فى هذا الجمع ، والتى هدأت من روع الجميع ، وجعلتهم يدركون أهمية الموقف ، وخطورة القرار على صالح الأمة فى ذلك الطرف العصيب ، وتأكد للجميع سمو الهدف ، ونبل الغاية ، إلى جانب أن أبا بكر لم يُقص الأنصار كلية

بل أعطاهم ما يتيح لهم المشاركة فى إدارة شئون الدولة ، وسياسة الأمور ، حين قال : " ... فنحن الأمراء ، وانتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور" ^(١) .

ثم يقف أبو عبيدة بن الجراح فى هذه اللحظات الحرجة ، ويقول لجموع الأنصار : " يا معشر الأنصار . إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير" ^(٢) ، وهى كلمات قليلة إلا أنها — والحال هذه — تعدل خطبا طويلة ، وفى تقديرى أنها تعدل كل ما تكلم به أبو بكر رضي الله عنه .

خرجت هذه الكلمات الوجيزة على لسان أبى عبيدة فكانت كالبلسم الشافى ، ولاقت قبولا واستحسانا فى نفوس نفر كبير من الأنصار أوسهم وخزرجهم ، حتى أن أحد أشرافهم وهو بشير بن سعد الخزرجى ^(٣)، تعتمل فى نفسه هذه الكلمات ، وينفعل بها ، فيقف مخاطبا الأنصار بقوله : " إنا والله وإن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدين ، وما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عرضا ، فإن الله ولى المنة علينا بذلك ألا أن محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا ، فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم" ^(٤) .

(١) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٢٢٠ ، نهاية الأرب جـ ١٩ ، ص ٣٤ .

(٢) المصدران السابقان .

(٣) الدكتور : عبد الفتاح شحاته : تاريخ الأمة العربية ص ٢١ .

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٦٩ ، ٧٠ .

وكان هذه الكلمات لبشير بن سعد كانت بمثابة جماع رأى الأنصار، والحد الفاصل في المسألة ، إذ سكن الأنصار ، ولم يعقبوا على ما قاله . مما دعا أبا بكر إلى أن يدفع إلى الأنصار بعمر وأبى عبيدة ، ويأخذ بيد كليهما قائلاً للأنصار : " أيهما شئتم فبايعوا" ^(١) فقال عمر وأبو عبيدة ، " لا والله . لا نتول هذا الأمر عليك ...".

ويلزم أن نقف هنا ملياً ، إزاء هذا الأدب الرفيع ، والزهد فى الإمارة والإيثار الذى يعبق به جو المكان ، إذ كان يُظن أن أبا بكر وقد قال ما قال فى إقناع الأنصار بالتخلى عن الإمارة للقرشيين ، وتسليد الموقف ، فهو المرشح التلقائى الذى لا ينتظر ترشيح غيره له ، ولا تنتظر تركيته من أحد ، ويحق له وزمام الموقف بيده أن يعلن نفسه خليفة لرسول الله ﷺ بدون انتظار .

إلا أن الصديق ﷺ وهذا خلقه ، يترفع عن هذا ، ويرشح غيره ، غير راغب فى الإمارة التى يدرك خطورة تبعاتها ، ولأنهآاز للفرص ، أيمكن لأى من الساسة أو طالبى الصدارة اليوم وعلى مستوى الدنيا بأسرها أن يتاح له مثل هذه الفرصة ثم يُقصيها إلى غيره ؟! إن ذلك البتة مستحيل فى عالم تعشق فيه الإمارة ، ويُستبق إليها ، ويُضحى من أجلها ، وقد كشف الصديق ﷺ عن هذا الأمر فيما يرويه السيوطى ^(٢) عن موسى بن عقبة فى مغازيه ، والحاكم عن عبدالرحمن بن عوف

(١) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٢٢١ ، نهاية الأرب جـ ١٩ ص ٣٥ ، الذهبى : تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ١٠٢ ، السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٦٨ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٦٩ — ٧٠ .

قال : خطب أبو بكر فقال : " والله ما كنت حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة قط ، ولا كنت راغبا فيها ، ولا سألتها الله فى سر ولا علانية ولكنى أشفت من الفتنة ، ومالى فى الإمارة من راحة ، لقد قلدت أمرا عظيما ، مالى به طاقة ولا يد إلا بتقوية الله " .

ثم لننظر كذلك إلى هذين الرجلين الذين يثق أبو بكر فى صلاحيتهما ويدعو القوم إلى اختيار أحدهما، لم لم ينتهزانا فرصة^(١) ويُقصيان أبا بكر ، ليعلتي أحدهما العرش، ويجعل صاحبه مشيرا له ووزيرا؟! ، إنه الأدب الإسلامى الرفيع ، والتربية النبوية التى تظهر الأنفس وتنقى السرائر ، فلا تجد النفس معها مجالا لضعف أو حيادا عن حق ، أو اتباعا لهوى ، ومن ثم يقف الرجلان ليعززا ما قالاه من قبل، حين قال لأبى بكر: "والله لا نتول هذا الأمر عليك" "فإنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار، وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك! أبسط يدك نبايعك"^(٢) .

والآن يمكن أن نجيب على تساؤل قد يدور بعقول البعض هو : كيف يترك رسول الله ﷺ الأمة دون أن يعين من يقوم بأمرها من بعده؟ والإجابة تأتى من ملمحين :

(١) لعل فى هذه الصور المحيئة من الإيثار الغامر ما يُجلى الموقف أمام من يقولون بتأمر المهاجرين الثلاثة على الخلافة ، ومن أشهر من يفتري هذا: الفرنسى هنرى لامانس الذى قرأ الأحداث بما يرضى نشوته لا بما يجلى الحقيقة التى لا تتكرر على مدى الأزمان .

(٢) تاريخ الطبرى، ج ٣ ص ٢٢١، الدكتور / عبدالفتاح شحاته ، تاريخ الأمة العربية ص ٢٢ .

الأول : أنه ﷺ ترك صحابته الأجلاء الذين رأينا صورهم ومواقفهم الرائعة ، والذين يصلح أى منهم للقيام بالمهمة ، ما داموا جميعا يقفون عند حدود كتاب الله وسنة نبيه .

والملمح الثانى : أن من يتتبع مناقب الصديق^(١) وأخلاقه وموقعه من رسول الله ﷺ ، يدرك أن هذا كله كان بمثابة ترشيح نبوى لأبى بكر دون أن ينص على ذلك صراحة ولم يبق للمسلمين فى هذا الموقف إلا أن يتدارسوا كل هذا ، فى جو من الود الصادق والفتنة الإيمانية التى تنتج نوعا من التحرى والتدقيق فى شخص المستخلف وهذا ما ألمح إليه الصحابيـان الجليلان عمر وأبى عبيدة حينما قدما أبا بكر وذكرـا مآثره . فكأن ما أراده المصطفى ﷺ هو بعينه ما كان .

وعلى إثر ما تقدم كان بشير بن سعد الخزرجى^(٢) ، أول من استبق لمبايعة أبى بكر ، ثم تلاه عمر وأبو عبيدة ، ثم تتابع الناس من كل جانب يستبقون للبيعة ، حتى كادوا — فى تكاثرهم عليها — يطئون سعد بن عبادة ، فأشير إليهم أن يتفادوه حتى لا يصاب بسوء .

وعلى الرغم من تسابق الناس وتزاحمهم على البيعة باقتناع و يقين فى جو من التوافق الاجتماعى والخلقى الرائع، فإنه يحلـو لبعض الطاعنين والحاقدين وأصحاب الهوى فيما بعد أن يدسوا على هذه البيعة ما يشوه

(١) ينظر : صحيح البخارى ج ٦ ص ٧٩ وما بعدها ، صحيح مسلم ج ١٥ ص ١٤٩ وما بعدها ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٦٩ وما بعدها فى مناقب أبى بكر ﷺ .

(٢) من أبناء عمومة سعد بن عبادة المرشح من قبل .

صورتها ، فيفندون حججا وبراهين على أن نفرا من المسلمين لم يبايعوا ، وهم : سعد بن عباد ، وعلى والزبير وطلحة ، غير أن هذه الأفانيد تعجز عن أن تحقق لهم ما يرمون إليه، وذلك لأمرين اثنين :

أولهما: أنه قد روى في نفس المصادر^(١) التي يعتمدون عليها أنهم قد بايعوا في نفس الموقف، أو على الأقل في اليوم الثاني في البيعة العامة.

وثانيهما : أنه حتى لو لم يبايع هؤلاء الثلاثة (فرضاً) فإن الإجماع لا ينكسر بعدم مبايعتهم ، ففي الجمعيات الوطنية والبرلمانات والمجالس النيابية الحديثة تصح الجلسة بحضور ثلثي الأعضاء ، كما أنهم يأخذون بأغلبية الأصوات حتى ولو كانت بنسبة ٥١% ، فكيف يُجوز هؤلاء الطاعنون التغاضي عن اعتراض ٤٩% ثم يلحون في مسألة تخلف نفر ثلاثة من أمة ، أو من مجموع أهل المدينة (على افتراض صحة ما يروون) ؟!

مع أنا إذا تحرينا الواقع ساعة اجتماع السقيفة ندرك أن عليا والزبير كانا من أهم المشتغلين بتجهيز جثمان النبي ﷺ ، فلم يحضرا الاجتماع ، وكان سعد بن عباد مريضاً مزملاً في ثيابه لا يقوى على المزاحمة للبيعة في حينها ، أو لعله — إن أخذنا في الاعتبار حالته النفسية — وهو الذي كان على وشك الإمارة لعله كبشر عادي تأثر بذلك ، وكان له في نفسه أثر ، فلم يبايع لتوّه ، فيكون في ذلك عذره ..

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص ٢٢٣ ، البداية والنهاية ج٥ ص ٢٤٩ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٦٩ .

كما أن امتناع هذا المرشح السابق عن البيعة لم يُبْنِ عليه نشوء معارضة جديدة ، أو تكون حزب سياسى مناوئ للخليفة ، وإنما كان كما أسلفنا ، مسألة فردية لا ترقى إلى مرتبة التنازع أو التحزب على ما رآه أهل الحل والعقد والدليل على ذلك يأتى من نفس رواية الطبرى التى بنى عليها المشككون وجهتهم ، فها هو بشير بن سعد الخزرجى يقول لأبى بكر وعمر عن سعد : "إنه لجّ وأبى ، وليس بمبايعكم حتى يُقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه فليس تركه بضاركم ، إنما هو رجل واحد ، فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد " (١) .

وغاية ما يمكن قوله فى هذا الأمر : أن الذين يبنون على عدم مبايعة هؤلاء الثلاثة مزاعمهم ، ويعدون نقاط ضعف فى البيعة ، إنما هم أحد فريقين .

إما هم طاعنون حاقدون على الإسلام ، وهم من غير أهله يريدون تشويه الصور الجميلة والمواقف المحمودّة فيه ، وإما هم أولئك الذين تشيعوا من بعدُ وأرادوا أن يصنعوا لهم تاريخاً، أو يُعدوا صياغته حسبما يوافق ما يذهبون إليه ، وعلى كل حال فهذه الأمور قد عُولجت العلاج الطيب الشافى فى مواضعها ، وتناولها كثير من المؤرخين المنصفين، بما لا يدع لنا هنا مجالاً للاستطراد فى مناقشتها (٢) .

(١) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٢٢٢ .

(٢) ينظر : مروج الذهب جـ ١ ص ٦٠٩ ، البداية والنهاية جـ ٥ ص ٢٤٩ ، الذهبى: تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ٨ ، ٩ ، العقد: عبقرية الصديق ص ١٦٤ =

البيعة العامة :

سُميت بيعة السقيفة في اليوم الأول " بالبيعة الخاصة " ، لاقتصارها على الأنصار وثلاثة من المهاجرين ، فلما كان الغد (الثلاثاء) انطلق أبو بكر وعمر إلى المسجد النبوي ، واجتمع المسلمون ، وقام عمر في الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم اعتذر للناس عن مقالته لهم بالأمس^(١) ، وقال : " إن الله قد أبقي فيكم كتابه الذي هو به هدى رسول الله ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه الله له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، فقوموا فبايعوه ، فبايع الناس بيعة العامة بعد بيعة السقيفة"^(٢) .

دستور الحكم الصالح :

بعد أن بايع الناس بيعة العامة قام أبو بكر ﷺ وألقى على المسلمين خطابا تاريخيا ، أبان فيه منهجه في سياسة أمور الدولة ، وضمنه دستوراً خالداً ظل وما يزال نبراساً لكل من يريد الحكم الصالح والسيرة الحسنة . فكان مما قاله بعد أن حمد الله وأثنى عليه : " أما بعد، أيها الناس . فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أزيح علتهم إن شاء الله ، والقوى فيكم

"وما بعدها وينظر موضوع : المستشرقون ومؤامرة الخلافة في كتاب "تاريخ الأمة العربية" للأستاذ الدكتور : عبد الفتاح شحاتة .

(١) حيث كان قال لهم : إن محمداً ما مات ، ومن قال ذلك ضربت عنقه .

(٢) البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٤٨ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٦٩ .

ضعيف عندى حتى أخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم^(١) يرحمكم الله^(٢) .

وبهذا صار أبو بكر رضي الله عنه خليفة عن رسول الله ﷺ ونشأ نظام الخلافة^(٣) الأسمى لأول مرة فى تاريخ البشرية ، تلك الخلافة التى هى : " حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به"^(٤) .

ويتحتم على دارس التاريخ الإسلامى — كى يفيد من دراسته أن يقف ملياً أمام هذه العبارات والقواعد الراسخة والمعبرة عن منهج الخليفة الأول ، كى يأخذ منها الأسوة والعبرة ، ويشاهد عن قرب ذلك الصحابى الذى لم يتخرج من مدرسة سياسية ، أو أكاديمية عسكرية أو دبلوماسية ، غاية الأمر أنه حذق الفهم وأجاد الإفادة من تأسيه واقتدائه بمحمد ﷺ ، ذلكم الصديق يضع فى أول خطاب سياسى دستوراً له وللرعية ، لا يتيح لنفسه فيه أن يكون صفوة من دون قومه ، أو متميزاً

(١) أى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ودفنه .

(٢) البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٤٨ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٦٩ .

(٣) لمزيد من التعريف بالخلافة ينظر : مقدمة ابن خلدون ص ١٩٠ وما بعدها ،

الدكتور : على حسن الخربوطلى غروب الخلافة الإسلامية ص ٣ — ٢٢ .

(٤) مقدمة ابن خلدون (فصل فى معنى الإمامة والخلافة) ص ١٩١ .

عليهم ، بل هو كأحدهم يطلب منهم معونتهم له إن أصاب ، ومقاومتهم إياه إن أخطأ ، إنه بهذه العبارة الخالدة يجعل محاسبة الشعب للحاكم مبدءا أساسيا من مبادئ الحكم الإسلامى الصالح ، وحكمهم له أو عليه دستورا واجب النفاذ .

" إن هذا المبدأ — مراقبة الشعب لحاكمه ومحاسبته — مبدأ تتباهى به الديمقراطيات الحديثة ، وتحسب أنه من بدع العصر الحديث! وما عرفوا أنه من وضع الصديق وأنه مقرره فى أول بيان له إلى الأمة منذ أكثر من أربعة عشر قرنا"^(١) ، ثم يقرر مبدأ آخر مهم حين يقول : " الصدق أمانة ، والكذب خيانة" ليؤكد أنه عند قوله ، ولن يكون كغيره من الحكام الذين يُلقون إلى شعوبهم من الوعود والآمال ما يبلغ حد الإجلال ، ثم إذا ملكوا المنصب نسوا ما قالوا ، وتبرعوا مما كانوا وعدوا به .

ثم يُنصَّب الصديق ﷺ نفسه سندا وناصرا لكل مستضعف غُطَّ حقه حتى يسترده له ، ونِدًّا لا يضارع ضد كل قوى يظلم غيره حتى يسترد منه حق المظلوم ، حيث إن الأمة الإسلامية كانت مقبلة على عهد جديد ، ومهمة حتمية فى سبيل نشر الدعوة والجهاد والحث عليه، حتى يرضى الله ورسوله ، وتعم كلمة التوحيد أرجاء الدنيا .

ويحرص على سلامة الأمة وطهارتها ونقاء أنسابها ، فيحذرهم من إتيان الفاحشة (الزنا) ، فإنها إذا تفشت فى أمة دنست أحسابها،

(١) الدكتور: عبد المقصود نصار: أول بيان أساسى للخلافة فى الإسلام مقال منشور فى مجلة الأزهر، رمضان ١٤١١هـ/ أبريل ١٩٩١م، ص ١٠٠٦ .

وقطعت أوصالها، وأصابهم الله عز وجل بالبلايا والطواعين التي تستعصى على العلاج ، وأخيرا يختتم الصديق بيانه الدستوري بتقرير أمرٍ مهم جدا وهو أن إمام الأمة يقوم بتلك المهمة قيام وجوب طاعة الله ولرسوله ، فإذا حاد عن هذا السبيل انتقضت عليه الامة ، ووقفت في وجهه ، وشقت عليه عصا الطاعة ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق سبحانه .

وهكذا لم يكن حكم أبى بكر " أتوقراطيا " - وهى حكومة الفرد المستبد - لأنه مبنى على شورى . ولم يكن " ثيوقراطيا " وهى الحكومة التى يدعى فيها الحاكم صفة التقديس والعصمة من الخطأ لأن القرآن الكريم يُعلم المؤمنين أن النبى بشر مثلهم غير أنه يوحى إليه ، كما أنه يبطل الكهانة والوساطة بين الإنسان وربه ، وكان أبوبكر رضي الله عنه يدرك هذا تماما ، فلما قيل له :يا خليفة الله . أنكر ذلك^(١) وقال : إنما أنا خليفة رسول الله ، إذا لم تكن حكومة أبى بكر نظاماً من نظم الحكم المعيبة التى عرفها العالم قديما وحديثا فيصح لنا أن نسميها بحكومة " الديمقراطية الإسلامية"^(٢).

الديمقراطية الإسلامية والديمقراطية الحديثة :

إذا كنا نسلم بأن هذا الذى حدث فى مؤتمر السقيفة ما هو إلا ضرب صريح وواضح من أهم ضروب الديمقراطية وأشكالها، فلنقف هنا مليا لنتبين أوجه العلاقة بين أحداث المؤتمر وبين هذا الاسم

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٩١ .

(٢) الدكتور : عبد الفتاح على شحاتة ، تاريخ الأمة العربية ص ٢٨ .

المستحدث "الديمقراطية" الذى لم تسمع البشرية عنه إلا فى هذا القرن الذى تعيشه الآن .

فالديمقراطية كلمة مركبة من كلمتين "ديمو" بمعنى الشعب، و"كراتوس" بمعنى السلطة" فيكون تمام معناهما أن "الشعب هو مصدر السلطة" والكلمتان "ديمو" و"كراتوس" إغريقيتان، تولدتا بين مجموعة من قبائل الإغريق التى استقرت ببلاد اليونان فى مدن معزولة عن بعضها البعض، فحاولت كل جماعة فى مدينتها أن تضع نظاما للحكم العادل، من أوليات هذا النظام أن يختار الصفوة من أهل المدينة رئيسا لهم لمدة عام، ثم إذا ما انقضى العام اختاروا غيره، وهكذا .

وهذا يدل على أن ادارة الحكم فى البلاد كانت نتيجة لانتخاب مباشر من الشعب كله ، وأن السلطة كانت مركزة فى أيدي الشعب، يختار من يشاء فى كل عام ، وهذا هو الحكم الديمقراطى فى نظرهم^(١) .

ولم يمنع هذا النوع من الحكم أن تقوم أنواع أخرى، كأن يحكم بعض المدن رجل واحد، أو عدة رجال أقوياء يتعاونون جميعا فى الادارة، مما نتج عنه تعدد الدساتير لكل مدينة، وكثرت الدساتير وتعددت ، وقامت مشاكل وفتن وحروب، وظهر الفلاسفة بأفكارهم التى تهدف إلى خدمة أوطانهم وأمهم، ومحاولة صياغة الأطر الدستورية بطريقة تخدم هذه الغاية .

(١) محمد على علوبة باشا : الإسلام والديمقراطية ص ٧ .

وإزاء هذا السعى من الفلاسفة، فقد رصدوا عدة أنواع وأساليب للحكم، وخلصوا إلى أن أنجحها هو الحكم الديمقراطي، أى الذى تكون السلطة فيه للشعب، وكانت هذه خلاصة ما توصل إليه أرسطو طاليس، ثالث فلاسفة اليونان، والذى يرى وجوب احترام ارادة الشعب النزيه المفكر، لتكون خير موجه لمن يختار من الحكام .

ومع ذلك، فإن الديمقراطية الإغريقية ما كانت إلا حرية مكفولة للأحرار اليونانيين دون غيرهم (إذ كان الاسترقاق يضرب أطنابه فى طول البلاد وعرضها)، فهى ديمقراطية محلية، وليست ديمقراطية انسانية بالمعنى الذى يجب أن نفهمهما به اليوم^(١)، ومن ثم فقد ضعفت شيئاً فشيئاً، وساد الطغاة والمفسدون فيما بعد حينما اتسعت أرجاء الإمبراطورية لأن الحكم الصالح لا يركز فى الحقيقة على النظم وحدهما، كما يركز على الفضلة والأخلاق ، إذ تقوم الأمم على قوة الخلق والتدين أكثر مما تقوم على قوة النظم وشدة الأحكام .

كما أن نظام الحكم فى أمة من الأمم لا يقف عند الفكرة العامة من الحكم .. فردى أم نيابى، ملكى أم جمهورى، ديمقراطى أم ديكتاتورى بل هو يتناول أموراً كثيرة تتصل بالفكرة العامة للحكم من قريب أو من بعيد، يتناول النظام الاقتصادى، وللنظام الأخلاقى، والنظام الاجتماعى، وألواناً أخرى من النظم تتعلق بالسلم والحرب، أو الدين والعلم ، وبغير ذلك من تفاصيل لا يتم تصور نظام الحكم إلا بتصورها كاملة فى حال حركتها، وفى حال استقرارها^(٢) .

(١) المرجع السابق ص ١٣ .

(٢) الدكتور : محمد حسين هيكى : الحكومة الإسلامية ص ٢٧ .

وهكذا فإن ما سمي بالديمقراطية الإغريقية قديما قد افتقدت فيه كل الجوانب الإيجابية التي ينشأ عنها نظام حكم صالح، واهتمت فقط بالشكل الذي يتم به اختيار الحاكم. ذلك الذي لا يرضى إلا الذين قاموا باختياره ليتمشى مع مصالحهم وأفكارهم .

ثم ظلت الشعوب من حينها تلهث وراء هذا المصطلح "الحكم الصالح" - ونتردى في عثرات جسام لا تجد من يقللها منها، وتمثل ذلك جليا في تلك الحروب الضروس التي استعرت نيرانها بين القوميان والممالك، والغزو والتسلط الذي كان سنة للأقوياء على الضعفاء، ثم انتحارهم في مسألة الرق وعبودية الإنسان، وأقنان الأرض والمصانع والموانئ .

إلى أن أفاقت شعوب الأرض من سباتها، ونفضت سراويل ظلام تلك العصور - فيما بعد - لتبهر ببزوغ فجر النظام العالمي الجديد لأول مرة في تاريخ البشرية، ذلك هو نظام الحكم الإسلامي الذي ساد الدنيا، ورحبت به معظم الشعوب التي كانت قد استعبدت دينيا وبدنيا ، ذلك النظام الذي أرسى قواعده وبينه للناس جميعا سيدنا محمد ﷺ، وصارت أسسه منهاجا ونبراسا لكل من يريد الحرية والأمن والمساواة، وحدث احتكاك وتجاوز بين هذا النظام وكافة الأنظمة المتخلفة والمستبدة فأفادوا منه، ونقلوا أهم معالمه، ثم أخذوا يدعون أنهم صانعوا الحرية، ومؤسسوا قواعد الديمقراطية .

ومن ثم نشأ الإدعاء الديمقراطي الغربى، واعتمد على اعتقاد أصبح بدهية تاريخية، وهو أن الديمقراطية الغربية قد تطورت عبر أربعة قرون من الارتقاء العشوى فى المجتمع السياسى الأوربى . بدءا من "الماجناكارتا" — "النظام الدستورى فى بريطانيا" — فى القرن السادس عشر ، وحركة التنوير، مروراً بحركات فكرية وسياسية كبرى، وبخاصة الحركة الدستورية، وحركة العقد الاجتماعى، والقانون الطبيعى، والحركة المياقية والليبرالية، ثم الحركات الاشتراكية الطوباوية والسندكالية والفوضوية، ثم الاشتراكية العلمية والليبرالية الجديدة، والعقد الجديد، ودولة الرفاهة والفكر الكينزى .. الخ^(١).

ورغم كل هذه المساعى من أجل الديمقراطية، لم يفلح المجتمع العربى فى تحقيق مبتغاه، وما كانت كل هذه المساعى إلا محاولات مستمرة للحد من تسلط الكنيسة ورجال الدين، أو لتوسيع نفوذ الطبقة العليا فى المجتمع^(٢)، أو لإتاحة الفرصة — أحيانا — لطبقة البرجوازية أو البروليتاريا للوصول إلى الحكم وفرض ذاتها على الواقع السياسى فى المجتمع ، ومع كل هذا لم توجد الديمقراطية الحقيقية التى زعموها فى كل تلك العصور "وأتى على الأمم الأوربية حين من الدهر طويل اشتدت فيه المظالم ، وعمت المفسد، وكثر الغاصبون، وقاست الشعوب أهوالا من الظلم والاستبداد، فكان كل من قدر على بلد

(١) الدكتور: محمد السيد سعيد: الديمقراطية وتجاويف الخطاب الديمقراطى ، ص ٥٧ .

(٢) الدكتور: لويس عوض: تاريخ الفكر المصرى الحديث ص ٩٦ .

اغتنصبه، وسخر أممه للذاته ومطامعه، فكانت الإقطاعيات، وكانت الملوك وأشباه الملوك والأمراء، ولم تر الشعوب فى ذلك العصر سوى الموت الفقر والجهل والاعتداءات^(١).

ويصبح القول بأن التجربة الديمقراطية قد شغلت الغرب أربعة أو خمسة قرون من التطور العضوى الارتقائى زعما باطلا "لأننا لا نجد سندا حقيقيا للقول بأن الديمقراطية الأوربية قد تطورت عبر هذه القرون كلها ... بل أننا نستطيع أن نؤكد أن الديمقراطية التى نعرفها فى أوربا وأمريكا اليوم تنتسب فى الحقيقة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة أكثر بكثير مما تنتسب لما قبلها"^(٢).

موازنة :

بعد هذا التصور السريع عن المحاولات الديمقراطية الغربية يمكن أن نتبين فى أى من الجانبين كان السبق الديمقراطى السليم ، فى مؤتمر السقيفة، الذى تكاثر عليه الطاعنون ، أم فى المحاولات الآيسة لدى الغرب، والتى لم تؤت ثمارا إلا بعد أن طحنت فى سبيلها أجيالا، وأهدرت من السنين قرونا؟ وما أكثر ما كانت — فى أغلب المحاولات — تولد مبتسرة غير كاملة النمو، إذا جاز لنا أن نعقد هذه المقارنة فإننا نحدد عدة ملحوظات أساسية نناقشها لنخلص منها إلى ما نعتقده يقينا.

(١) محمد على علوبة باشا: الإسلام والديمقراطية ص ١٤ .

(٢) الدكتور : محمد السيد سعيد : الديمقراطية وتجاويف الخطاب الديمقراطى

الملحوظة الأولى:

(الإعداد للمؤتمر) : فإنه لم تتح لجمهور المسلمين فى المدينة المنورة الفرصة للدعوة إلى المؤتمر، وإنما كانت فكرة اجتماع الأنصار، ولحوق المهاجرين الثلاثة بهم بنت اللحظة ، ووليدة الموقف، وهذا فى حد ذاته كاف لإجهاض أية محاولة للتلاقى والاتفاق على رأى، واتخاذ قرار حاسم ، (هذا من الوجهة العصرية، وكما هو الحال فى عقد المؤتمرات والإعداد لها والدعوة إليها) .

ففى فرنسا — مثلا — حين اشتدت الأزمة المالية، وتعاقبت الوزارات وتعددت فى محاولة لإصلاحها، فشلت جميعها، ولم يبق إلا علاج واحد لم يجرب بعد، ألحت كل الجوانب على الملك بتجربته، وهو دعوة مجلس طبقات الأمة للانعقاد ومحاولة الإصلاح، ورغم مساس الحاجة إلى ذلك، فإن الملك فى الثامن من أغسطس ١٧٨٨م^(١) قام بدعوة المجلس للانعقاد فى العالم التالى !

واجتمع المجلس فى قصر الفرساي (مايو ١٧٨٩م)، ووقع ممثلوا طبقة العامة تحت تأثير عقلية السوق، إذ كان الاجتماع فى وقت هياج شديد وآمال عريضة، وعقدوا النية من بادئ الأمر على أن يمنحوا فرنسا نظاما وهيئات تكون موضع حسد العالم لها، وأنموذجا لسائر البلدان، ثم أعلنوا فيما بعد (١٧ يونية) أنهم يكونون "الجمعية الوطنية"، كما أقسموا ألا ينفضوا حتى يضعوا دستوراً لفرنسا^(٢) .

(١) هـ . أ . ل . فشر : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ص ٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١١، نجيب عبدالمسيح : الثورة الفرنسية ونابليون ص ٩

ولم تفلح الجمعية الوطنية في تحقيق ما اجتمعت من أجله، لأنها اجتمعت وسط غوغاء الشعب، وفي قاعات مفتوحة في قصر الفرساي، إضافة إلى أن عظم الأعداد المشاركة فيها قد ساعد على تعطيل أعمالها، ثم إن الملك — (لويس السادس عشر) — عاد فتنكر الديمقراطية، واستهوته سياسة القوة والبطش، فكان رد ديمقراطية باريس على تهديدات الملك هو ذلك الرد التاريخي بالهجوم على الباستيل، والذي "طرب له الأحرار في كل مكان"^(١).

وعلى عكس ذلك، فإنه في الولايات المتحدة، وفي ذات العام (١٧٨٩) تألفت لجنة صغيرة من رجال ذوى كفاية ممتازة، قاموا على إعداد دستور أمريكي، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم وراء أبواب مقفلة في مدينة فيلادلفيا الهادئة المتدينة^(٢)، فتحقق لهم انجاز مهمتهم، دون أن تثيرهم العامة، أو يشغب عليهم الحاكم.

ومع ذلك فإننا نلاحظ هنا أمرين:

أولهما أن الجمعية الوطنية الفرنسية وقد هيأت لها أحداث الأزمة المالية في سنوات طويلة برنامجا وطنيا، ووجهت لها الدعوة للانعقاد قبل عام، وكثر عدد أعضائها، ورغم كل هذا لم تفلح في مهمتها، وكانت كثرة أعضائها عبئا عليها، في مقابل أن المجتمعين في مؤتمر السقيفة لم يعدوا له، ولم يتحدد من يحضر المؤتمر ومن لا يحضر،

(١) نجيب عبدالمسيح : نفس المرجع ص ١١ .

(٢) نجيب عبدالمسيح : نفس المرجع ص ١١ .

ومع ذلك لم تكن كثرتهم إلا انجازا مهما يتحقق به عموم البيعة وصحة الإجماع .

أما الأمر الثاني:

فإن دستور أمريكا عكفت على صياغته لجنة مختارة، قليلة فى عددها، محبوسة عن عموم شعبها، إذا رؤى — فى ذلك — أن اجتماع عموم الشعب لا يتيح للجنة فرصة العمل والإنجاز ، وهو أمر — كذلك — قد تم على خلاف ما تمت به البيعة العامة فى مسجد المدينة، حيث أعلن الخليفة الأول دستوره بلسان حال الأمة ، وعلى مرأى ومسمع من الجميع مستقيا مواده مما أحكم وفصل فى الكتاب والسنة .

وفى هذين الأمرين ما يؤكد على أن مسيرة الديمقراطية الإسلامية كانت أسبق وأنجح من كل ما حاكها من ادعاءات ديمقراطية من بعد، يدلل لذلك ويؤكد أنه جمعية فرنسا الوطنية بعدما أكملت صياغة الدستور فى حلال عامين (١٧ يونية ١٧٨٩م — ١٤ سبتمبر ١٧٩١م) أصدرت قانونا عابثا يقضى بتحريم انتخاب أعضائها فى الجمعية التشريعية الجديدة، مكتفية بإصدارها للدستور، فمهدت بعملها هذا إلى قيام حكومة استبدادية حربية، وبذرت بذور حرب عامة^(١) لتسجل بذلك فشلا ذريعا للمحاولة الديمقراطية التى دفعت إليها ظروف البلاد وأحوالها .

(١) هـ . أ . ل . فشر: تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ص ٢٢، نجيب عبدالمسيح : نفس المرجع ص ١٥ .

الريشتاغ الألماني ومحاولة ديمقراطية :

سعت ألمانيا (بروسيا) — كما سعت دول من قبلها — إلى تحقيق سياسة برلمانية وممارسة ديمقراطية، كي تتسم هواء الحرية، ويعم الشعب بالمشاركة في نظام الحكم ، فأنشأت مجلسا نيابيا سمي "الريشتاغ"، ينتخب أعضاؤه بالاقتراع العام، غير أنه سلب حق تأليف الوزارات أو إسقاطها، أو الهيمنة على أموال الدولة العامة أو القوات الحربية، وبذلك لم يخول هذا المجلس النيابي حق السيادة على الحكم أو توجيهه .

فإذا كان هذا المجلس (الريشتاغ) لم يقترب من الديمقراطية الحقيقية التي أقرها مؤتمر السقيفة، فإنه — أيضا — لا يقوى على مقارنته بمجلس شورى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فيما بعد، والذي كان — على قلة عدد ممثليه — يتسيد كافة السلطات في الدولة، بدءا من اختيار الخليفة (الحاكم) نفسه إلى كل ما يصاحب هذا العمل الحر المستتير من أمور أخرى. فكانت النتيجة أن هزمت سيادة البرلمان الألماني على الحكومة، وضمنت للأوتقراطية الكلمة العليا، ليصير هذا البرلمان مجرد تجربه فاشلة تجاه الديمقراطية التي ظل الشعب يلهث وراءها إلى ما بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية .

الملاحظة الثانية :

(الجو العام للمؤتمر والوقت الذي استغرقه) : بنظرة سريعة إلى الجو الذي انعقد في أثنائه مؤتمر السقيفة نلاحظ أنه كانت تظله سحبات

كثيفة من الأسى والحزن وعلامات الاستفهام، لفقد المسلمين لنبيهم ومعلمهم الأول، الذى جعلهم يتسامون على جاهليتهم التى كانوا فيها، ويتيهون فخارا على كل الأمم من حولهم — آنئذ — بما نقلهم إليه من عبودية لله ، وتسوية بينهم وجعلهم — أولا وآخرا — أمة واحدة تجتمع بهذا المنهج على قلب رجل واحد، فالجو إذن لا يسمح بأى نوع من الحساسية أو الحسابات الدنيوية المادية، لأن الجميع فى هذا المصائب الفادح سواء .

كما أنه بنظرة يسيرة إلى الوقت الذى استغرقتة جلسة السقيفة ندرك أنها لم تستمر سوى ذلك الوقت الذى يتيح لنا ترديد ما تم فيها من مناقشات واقتراحات وتقنين النتائج، وأعتقد أن ذلك لم يكن ليستغرق سوى ساعة واحدة من الزمن تقريبا، هذه الساعة فى قياسات العصر الحديث ربما لا تكفى لقراءة جدول أعمال المؤتمر، ولا ننسى أن جمعية فرنسا الوطنية ظلت طوال عامين فى صياغة دستور لم يعمل به، وعكفت لجنة الدستور الأمريكى أشهرا فى هذا الصدد، كل ذلك مع ما سبق من الإعداد والدعوة وتوالد الأفكار .

فإذا كان مؤتمر السقيفة قد تم على هذا الشكل من المفاجأة والسرعة وقصر مدة الانعقاد ثم تحقق له هذا القدر الأكبر من النجاح فما سر ذلك؟ إنهم أصحاب النبى ﷺ الذين جمعوا بين التدين والأخلاق، والقوة والسياسة، وكانت الإنسانية متمثلة فيهم بجميع نواحيها وشعبها ومحاسنها المتفرقة فى قادة العالم، وكان يمكن لهم

بفضل تربيتهم الخلقية والروحية السامية، واعتدالهم العجيب الذى قلما اتفق للإنسان، وجمّعهم بين مصالح الروح والبدن، واستعدادهم المادى الكامل وعقلهم الواسع^(١)، أن يحزموا أمرهم، ويتفقوا على ما اختلفوا من أجله، طالما تجلت الحقيقة، وظهر الحق، واهتدوا جميعا إليه بعيدا عن كل مزايده تُزاحم المصلحة العامة، أو تغطى الحق .

الملحوظة الثالثة :

(تناسب عدد الأعضاء) : إذا اعتبرنا أن مؤتمر السقيفة كان بمثابة جمعية وطنية — بالمسميات الحديثة — ، فإنه يجوز لنا أن نقف على ملحظ هام وملح ، فات على الطاعنين على المؤتمر أن يلحظوه، ألا وهو تناسب عدد المشاركين فى المؤتمر من الفريقين (المهاجرين والأنصار) فالمهاجرون كانوا ثلاث رجال فقط، وهذا بالمفهوم الحديث لا يمثل جمعية وطنية يدعى إليها عموم أهل رأى ، ووجوه القوم لمناقشة أمر خطير، يتصل مباشرة بحكم البلاد وولاية أمر الأمة .

لكننا نقول : إن المؤتمر لم يُبن على خلافات سياسية أو فكرية أصيلة، وإنما قام بسبب أمر هام وعاجل هو خلو منصب الرئيس أو إمام الأمة بوفاة النبى ﷺ ، فهذه واحدة، أما الأخرى، فإن الروى الإسلامية آنذ والتي تمثلت فى المؤتمر كانت تعتمد على أساس جوهرى هام، وهو أنها ديمقراطية مبادئ لا ديمقراطية أغلبية .

(١) أبو الحسن الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٠٣ .

بمعنى أنه يجوز للمؤتمرين أن يختلفوا، وأن تتعدد آرائهم ، لكنهم بالمناقشة الجادة ، والإقناع البناء المبني على ما يوافق صالح العامة، يمكن أن يجتمعوا فى النهاية على ما يُصلح أمرهم، ويُرضى الحقيقة الوحيدة التى اجتمعوا من أجلها، وهى اختيار من يصلح للمهمة، ويقوم بأمر الأمة، فالهدف واحد وإن اختلفوا من أجله، وبناء على هذه القاعدة تذوب فوارق الجماعات، وتتلاشى نظرية التكافؤ فى الأصوات ، فالجميع هنا قد صار كلا لا يتجزأ من أجل إنجاح مهمة الكل، لا تحقيق رغبة المجموع .

الملاحظة الرابعة:

(التنازع على الموقع السياسى) : فهذا فى الأصول والممارسات السياسية الحديثة ينبى عليه محاولة كل فريق تحقيق الفوز والنصر لمرشحه ومحاولة الضغط بكل إمكانياته ولباقتة حتى لا يتيح لمنافسه جوا من الحرية أو الاقتراب من الظفر بالمنصب، أو محاولة تشييع السلطة واقتسامها بين المتصارعين عليها، وقد مثل ذلك فى ما انتهت إليه أعمال الجمعية الوطنية الفرنسية إذ نجمت الفوضى بناء على تشتت السلطات، وعمرت الملكية — وأن كانت كظل فقط — وصارت السلطة الفعلية فى يد أربعين ألف مجلس محلى^(١)، كما ظهر عيب آخر نتج من المنطق الديمقراطي للثورة بعينه، هو اخضاع رجال الدين لدستور مدنى^(٢).

(١) هـ . أ . ل . فشر: تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ص ١٨، ١٣٧، ٣٠٧

(٢) نفس المرجع ص ١٨، نجيب عبدالمسيح: الثورة الفرنسية ونابليون ص ١٦ .

وحتى في إيطاليا فإن المساعي الديمقراطية وُلدت عقيمة، حيث كان البرلمان الإيطالي يُنتخب بطريقة التمثيل النسبي، وتعددت الأحزاب، وضعفت الوزارات، وكانت الخطابة حرة، والمناقشات طليقة من جميع القيود، ولم يكن ثمة شيء في حكومة البلاد يُلهب الوطنية في النفوس، وتلتف حوله الآراء، فكان هذا كله كافيا لتشتت القوى القومية، وشل الجهود الديمقراطية، مما نتج عنه آخر الأمر ظهور "بنيتوموسولينى" ثم ميلاد حزبه الفاشستى من بعد^(١).

بهذا يمكن لنا أن نقرر أن مؤتمر السقيفة، أو (الجمعية الوطنية الإسلامية) في المدينة المنورة، قد ارتفع بمستواه عن هذا التدنى الذى عاشته الديمقراطية الحديثة، وكان ضربا من الخيال (فى مفهوم الساسة الآن) لأنه بعد كل ما تم فيه من أحداث نتج عنها ترشيح المهاجرين للولاية، وثبوت الحق بهم — وهم فى دار الأنصار — نجد أن المنصب يتهدى برقة بين زعماء المهاجرين الثلاثة، فهذا أبوبكر يشير إلى القوم باختيار أحد الرجلين — عمر وأبى عبيدة — ولم يقع فى ذهنه أنه أحق به وأولى، ثم يقوم هذان فيزكيانه، ويؤثرانه على نفسيهما، ثم يقدمان الحجج والأدلة القاطعة على أحقيته بالمنصب، فأى دين هذا الذى يجعل الإمارة مطلبا للجميع من أجل لمّ شمل الأمة، ثم يجعل الكل يؤخر نفسه ويؤثر غيره؟!!

(١) هـ . أ . ل . فشر : تاريخ فى العصر الحديث ص ٦٠٠ .

أنه دين الإسلام الذى لا يفرق بين الحاكم والمحكوم، والأمير والمأمور، إذ الكل فى ساحة التوحيد سواء، وليس المختار للولاية إلا كأحدهم ما دام يلتزم المنهج ويسلك سبيل الحق والخير .

المحوظة الخامسة : (الدستور - صياغة فردية وموافقة جماعية):

بعد أن تمت البيعة للخليفة الأول لرسول الله ﷺ ، وقف فى الناس خطيباً ملقياً إليهم بدستور صلاح الأمة ، مبيناً المنهج الذى عليه سيسير، فكان ذلك "أول بيان سياسى للخلافة فى الإسلام" (١) .

وجاء دستور أبى بكر مختلفاً تماماً عن كل الدساتير الوضعية من بعده، إذ كان مُستمدداً من الأصول الإسلامية والقواعد التشريعية التى تجد قبولا فى نفس الرعية جمعاء، فى حين نرى أن كل القوانين والدساتير الوضعية ما تمت صياغتها إلا لبيان سلطة الحاكم، وحقوق المحكومين ، وعلاقة كل منهما بالآخر، وطرق توزيع السلطة واستعمالها، وكل هذا تكفل به الدستور السماوى — "وإن كان القرآن الكريم لا يُمثل دستورا بالمعنى الذى تعرف عليه فى الدول الحديثة" (٢) وبينه أتم بيان وأحسنه، وقام بتطبيقه المسلمون الأولون رعاة ورعية على خير وجه وأكملوه "فكانوا بذلك ملوك الدنيا وسادة العالم" (٣) .

(١) الدكتور : عبد المقصود نصار : أول بيان سياسى للخلافة فى الإسلام ص ١٠٠٦ .

(٢) الدكتور : على حسن الخربوطلى : غروب الخلافة الإسلامية ص ٢٣ .

(٣) المرجع السابق، طه محمد الساكت : درجات الناس ص ٧٩ .

فى حين كانت الدول من حولهم — من قبل ومن بعد — تخضع لمملوك وأمرأء يزعمون أنهم موكلون بمصالح البشر، وأن الله اصطفاهم للحكم بين الناس، حتى تجاسر البعض منهم فأعلن مقولاته: "أنا الدولة"^(١) كما أعلن آخرون أنهم ظل الله فى الأرض، فكان لهم على الناس حق السمع والطاعة، وليس للناس عندهم حق ولا واجب .

وعليه فمما يمكن قوله فى دستور أبى بكر الصديق (رضي الله عنه) أنه وإن شارك القوانين الوضعية فى أن صياغة كليهما جاءت على لسان بشر ومن صنعتة، إلا أن أبا بكر فى وضعه لدستوره وخطة عمله لم ينهج — فى ذلك — منها دنيويا ومدنيا، وإنما استمد جوهره من خلال التزامه وتمسكه بالدستور السماوى المنزل على النبى محمد (ﷺ) وإن لم يكن فيه من هذه الناحية إلا إجمال بعض الواجبات والأحكام التى يفصلها النبى (ﷺ) بقوله وفعله من خلال سنته التى صارت الأساس الثانى من أسس التشريع، يشرحها الصحابة ويزيدونها تفصيلا بأقوالهم وأفعالهم كذلك ثم يزيدها تبيانا وإيضاحا المجتهدون والفقهاء من المسلمين .

"وعلى هذا فالحاكم الإسلامى له أن يؤول القرآن ، ويفسر الحديث، ويبسط الأحكام، ويقيس الأمور بأشباهاها، حتى يساير المصلحة العامة، أو حتى يساير المنقول والمعقول، وإذا كان فى الأمر

(١) محمد على علوبة باشا : الإسلام والديمقراطية ص ٣٩، الدكتور: عبدالعزيز رفاعى: فجر الحياة النبائية فى مصر الحديثة ص ٩ .

جديد فعليه أن يستبد (يتمسك) برأيه مستتيرا بالغرض الحقيقي من الإسلام، وبالهدف الأسمى للدين الإسلامى" (١).

ونقطة أخرى فى دستور أبى بكر ، هى أنه وضع دستوره مقننا لعمل الحاكم وملزما له، قبل أن يكون ملزما للرعية، فأكد بذلك على أن المحكومين هم رقباء على الحاكم وناصحين له، ثم هم بعد ذلك ملتزمون معه بما التزم به، وهذا هو جوهر القضية التى كدح الكثير من شعوب العالم للظفر بها فيها هى — هنا — تتقرر بتلقائية من الحاكم بدون اعداد شعبى أو محاولات .

وفى نهاية بحثنا نقرر أن مؤتمر السقيفة لم يكن مسبوقا بعمل من هذا النوع حتى يقتبس منه، ولم يكن — حتى — العرب من قبل الإسلام قد ألفوا نظام الدول وسياساتها، وإنما كان هذا الذى تم فى السقيفة عملا بكرة جديدا لم يقم على نمط سابق، حتى وإن كان المسلمون — فيما بعد — قد أفادوا من نظم الفرس والروم فى الإدارة والسياسة، فإنهم فى ذلك الوقت المبكر لم يأخذوا الفرصة لنيل هذه الإفادة التى لم تكن قائمة، فكان نجاحهم فى المؤتمر، أو نجاح المؤتمر بهم نتيجة إيجابية لكل ما تلقوه وما تعلموه على يد نبيهم ﷺ ، وامثالاً للمأمور به والمنهى عنه فى قرآنهم وسنة نبيهم .

كل ذلك فى حين نرى أن الديمقراطيات الحديثة ونداءات الحرية قد استغرقت فى تطورها ونضوجها قرونا عديدة، عانت الأمم خلالها من الاستبداد وحكم الفرد، وامتياز الطبقات، ولم تجد النداءات ولا

(١) الدكتور: على حسن الخربوطلى : غروب الخلافة الإسلامية ص ٢٣ .

الإدعاءات متنفسا لها، أو مخرجا إلى النور إلا منذ بضعة عقود قريبة، وأيضا لم تبلغ حد الكمال، إذ ما يزال يكتنفها التمييز بين الأجناس والألوان، وبعض الامتيازات الطبقيّة التي هي مستمرة من قبل، فلم تصل بعد إلى حد النضج التام أو الاكتمال .

ثم هي كذلك لم تصل إلى حد أن تمثل نظرية إنسانية عامة — كما كانت في الإسلام — تشتمل أو تتيح لكل البشر أن يتدثروا بدثارها، فما هي إلا نزعات قومية ، أو ديمقراطيات محلية متعددة، تصطدم ببعضها البعض إذا ما وجدت الأسباب!

ويحق لنا — الآن — وبثقة أن نقول لكل هؤلاء شعوبا وحكومات طاعنين ومنصفين. تعالوا إلى دين سمح نقي يُسوى بين كل من يستظل برايته ويتنسم عبيره، دين قد شرّع من قبل كل ما تصبون إلى بعضه الآن، ويسوى بين الأبيض والأسود، والحر والعبد، والغنى والفقر، بل والحاكم والمحكوم ، على أساس من التكافل الاجتماعي بين الكافة، يحتكم فيه الكل ويُساسون بمنهج إلهي قويم، دين فيه أصول ادعاءاتكم في الحرية والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحب الطبيعة، والرفق حتى بالحيوان، دين فصلّ أسسه وشرح تعاليمه نبي معصوم، فترك الناس على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا مهلك لنفسه و: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١).

ولله الفضل والمنة ولله الحمد أو لا وآخرا ،،،

(١) الآية ١٠٨ من سورة يوسف .

مصادر البحث ومراجعته

- ١ - الإمام البخارى (أبى عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت ٢٥٦هـ): صحيح البخارى طبعة ثانية. القاهرة ١٩٧٩م.
- ٢ - ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد الحضرمى) المقدمة. دار القلم. بيروت طبعة سادسة ١٩٨٦م.
- ٣ - الذهبى (محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ) : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ج ٣ القاهرة (بدون).
- ٤ - السيوطى (جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ) : تاريخ الخلفاء. تحقيق: محمد محى الدين عبدالحميد (بدون).
- ٥ - الطبرى (أبى جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ) : تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف طبعة ثالثة (بدون).
- ٦ - ابن العربى (القاضى أبى بكر ت ٥٤٣هـ): العواصم من القواصم بيروت ١٩٨٦م.
- ٧ - ابن قتية (أبى عبدالله محمد بن مسلم ت ٢٧٦هـ): الإمامة والسياسة تحقيق : محمد الزينى. القاهرة ١٩٦٧م.
- ٨ - المعارف تحقيق د/ ثروت عكاشة ط ٢ دار المعارف (بدون).
- ٩ - ابن كثير (الحافظ أبى الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير ت ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية بيروت ١٩٧٤م.

- ١٠ - المسعودى (أبى الحسن على بن الحسين ت ٣٤٦هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر كتاب الشعب القاهرة .
- ١١ - الإمام مسلم (أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ت ٢٦١هـ) : صحيح مسلم بشرح الإمام النووي . دار الكتب العلمية بيروت (بدون) .
- ١٢ - النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ) : نهاية الأرب فى فنون الأدب . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٥م .
- ١٣ - ابن الوردى (زين الدين عمر) : تتمة المختصر فى أخبار البشر طبعة أولى . بيروت ١٩٧٠م .
- ١٤ - إبراهيم شعوط (الدكتور) : سياسة الهدم فى التاريخ الإسلامى مقال نشر فى مجلة منبر الإسلام . رجب ١٣٨٥هـ / أكتوبر ١٩٦٥م .
- ١٥ - السيد أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين طبعة ثامنة . دار نهر النيل ، القاهرة ١٩٨٩م .
- ١٦ - طه محمد الساكت : درجات الناس . القاهرة ١٣٧٠م .
- ١٧ - عبدالفتاح على شحاتة (الدكتور) : تاريخ الأمة العربية . القاهرة ١٩٧١م .

- ١٨ - عبدالمقصود نصار (الدكتور) : الخلفاء الراشدون . القاهرة ١٩٨٧م : أول بيان سياسى للخلافة فى الإسلام . مقال نشر فى مجلة الأزهر ز رمضان ١٤١١هـ / أبريل ١٩٩١م .
- ١٩ - على حسن الخربوطلى (الدكتور): غروب الخلافة الإسلامية. مؤسسة المطبوعات الحديثة بالقاهرة (بدون) .
- ٢٠ - عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق. القاهرة ١٩٨١م .
- ٢١ - عبدالعزيز رفاعى (الدكتور) : فجر الحياة النيابية فى مصر الحديثة . القاهرة ١٩٦٤م .
- ٢٢ - لويس عوض (الدكتور) : تاريخ الفكر المصرى الحديث . طبعة ثالثة القاهرة ١٩٦٩م .
- ٢٣ - الشيخ/ محمد الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين . طبعة ثالثة. القاهرة ١٩٨٠م .
- ٢٤ - محمد على علوبة باشا : الإسلام والديمقراطية . القاهرة ١٩٥٠م .
- ٢٥ - محمد حسين هيكل (الدكتور) ، الحكومة الإسلامية ، طبعة ثانية. دار المعارف ١٩٨٣م .
- ٢٦ - محمد السيد سعيد (الدكتور) : الديمقراطية وتجاوزيف الخطاب الديمقراطى . مقال نشر فى مجلة العربى الكويتية . ربيع الآخر ١٤١٢هـ / نوفمبر ١٩٩١م .

- ٢٧ - نجيب عبدالمسيح: الثورة الفرنسية ونابليون، طبعة أولى
القاهرة ١٩٥٠م.
- ٢٨ - هـ . أ . ل . فشر : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث . تعريب-
أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع . دار المعارف . طبعة سابعة
١٩٧٦م.



منتہی سورا الازہکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET